حَـالَةٌ..

كم أنا مزدحِمَةٌ كثيراً بكلّ هذا الصَّخَبِ الَّذي يعتريني كومضٍ فيُدْخِلُني في صمتٍ مُطْبِقٍ كصمتِ الدُّخَانِ الذي ينبعثُ من احتراقٍ شبهِ مُرَاوِغٍ في أوردةِ الفِكْرَة ، وشرايينِ الخَطْوِ الهائِمِ في شوارعِ بلدتِنَا المتقاطعةِ . أسيرُ بلا هدفٍ ، أمارسُ طقسَ العُبورِ أمامَ النَّاقِلَاتِ ، مناوشةً سائقي (الميكروباص) أَجُرُّ الخطواتِ اللَّامُبَالِيةِ في اتجاهاتٍ عدَّةٍ لكنَّ قدميَّ قادتْني للذِّهابِ إليها كما تَجُرُّ العصا كفيفاً في منتهى الحَيْطَةِ و الحَذَرِ. تذكَّرْتُ ملامحَهَا ،الأسوارَ الَّتي تَحُدُّ مكانَهَا وجسدَهَا البَاذِخَ فانتابني إحساسٌ بأنَّ مجرَّدَ وجودِهَا – على قَيْدِ الوُجُودِ – في حدِّ ذاتِه معجزةٌ كبيرةٌ أحتاجُهَا بشدَّةٍ في هذه اللحظة . زال تردُّدِي فأكملتُ طريقي نحوهَا وقد رميتُ بجسدي في أحدِ (التكاتك) وقد تعمَّقَ داخلي إحساسٌ بأنَّ ذَهابِي إليها يشاركُ في صُنْعِ حالةٍ تشبهُ معجزةً أو أسطورةً مثلَ كلِّ تلكَ الأساطيرِ المطويةِ ،المنسيَّةِ والمُغَرَّرِ بها..!

لم أكنْ قد وصلتُ إلى المكانِ لكنَّها بانتْ لي من بعيدٍ حينَ حرَّكْتُ جسدي المثقلَ صوبَ الاتجاهاتِ المتباينَةِ . عندمَا لاح لي جسدُها الفَتِيُّ ، عنفوانُها الباذخُ رُحْتُ أسألُ نفسي : أتعرفينَ يا نَفْسِي – يا تلكَ المجهدةُ باحتمالاتٍ شتَّى - معنى المعجزةِ ، معنى أن يختارَكِ قدرُكِ لتنفيذِ فكرةٍ ما حتَّى ولو بدتْ تلك الفكرةُ بسيطةً للغايةِ وملتصقةً بذؤاباتِ التَّوَجُّسِ ؟ أنزلني (التوكتك) المترنّح كمخمورٍ فجأةً ولم يمهلْني فرصةً للتردُّدِ بينما أشارَلِي الصَّبِيُّ القابعُ بداخلِهِ – بيديه ناحيتَهَا : إلى هذه الناحيةِ ستمشينَ قَدَمَاً ... كان طريقُ التُّرَابِ الَّذي مَشَيْتُه في أول (أخميم) ساطعاً وبهياً ، بينما عرباتُ الخُضَارِ والفاكهةِ شبهُ العطنةِ تقفُ معطيةً ظهرَهَا متجاهلةً تماما لحركةِ الصبيةِ المناوئَةِ .انتبيتُ من - تحت (الكَوْم) بعناءٍ وقد تعفَّرَتْ ثيابي وكدتُ أن أتوهُ وسَطَ بقايا حوائطَ طينيةٍ آيلةٍ للسقوطِ ولم أُفِقْ إلا وقد سقطتْ مني الكوفيةُ التي كنتُ قد خلعتُها من حول رقبتي ، ورحتُ أمسكها بيدي تلفتُّ قائلةً : لا يهمُ ما سقطَ وفقدتُهُ ، فما ضاعَ منّي لن أسمحَ له بأنْ يُضَيِّعَ بهجةَ لقائي بها ..! ووصلتُ عندها فتوقَّفْتُ أمامَهَا ، ارتبكتُ كثيراً حين تلاقَتْ نظراتُنَا ، رحتُ أتأمَّل هذا الجمالَ الأخَّاذَ .الفتنةَ الملتبسةَ ، والغوايةَ المُندسَّة .تملكني إحساسٌ جارفٌ بأنَّني في محرابِ عِبَادَةٍ ،عاريةٌ كعاهرةٍ، صوفيةٌ في مَقَامِ الإحسانِ ، مُتَبَتِّلَةٌ كتائبةٍ

من ذنبٍ كلّ من مرُّوا وأوقدوا في روحي حرائقَهَم ثمَّ مضوا غيرَ مكترثينَ بقطعِ الرَّمَادِ المُتَنَاثِرِ. رحتُ أنظرُ إليها صامتةً .أتوهُ متوجِّدَةً في شاسعِ الفراغِ حولَهَا ، فيستنطقُنِي إحساسٌ مباغِتٌ بأنَّنِي كنتُ هنا مِن قَبْلُ ، كَبِرْتُ وتَرَعْرَعْتُ ، عشقتُ وبكيتُ ، قَتَلْتُ وَقُتِلْتُ ، جربتُ وتوقفتُ ، لكنَّ قَدَراً قد ناوشَنِي بالنسيانِ ثم راح يختارُ لي شيئاً بسيطاً وخارقاً عَلَي أنْ أعودَ لأُتِمَّهُ على وجهِهِ الأوحدِ. كانتْ تقفُ وسَط قدسِهَا ، تأمرُ فُتطَاعُ ، تشير فيَحْنُونَ رؤوسَهم بالموافقة أشارتْ لي بيدَيْها، فجفلْتُ وارتبكتُ وتلعثَمْتُ لكنِّي- رغمَ ارتباكي - اقتربتُ فراحتْ ضاحكةً تقربُني من مجلِسِهَا و تحكي لي عن المَلِكِ الأَبِ» رمسيس « والملكةِ الأم
« نفرتاري» تلك المترفةُ الباذخةُ الميّتة..!
راحت تروي باستفاضةٍ كيف ساقَتْها الأقدارُ لتتزوجَ من المَلك فقط لتحافظَ على المُلْكِ وتصبح هي الزوجةَ الملكةَ وكاهنةً لـ (حتحور) !!
استبقْتُهَا وسألتُها متصنعةً الغباءَ والمراوغةَ : لكنّي لا أَملك مُلْكاً لأحاربَ لأجلِه ؟؟ كل ما أملكُهُ مملكةٌ مِن وهمٍ لا يَحُدُّ حدودَها أبٌ ولا أخٌ ولا رفيقٌ ، كما أنَّني تائهةٌ بحقٍّ لا أستطيعُ أنْ أُصْبِحَ كاهنةً للربَّة (حتحور) ، ولا مقيمةً الشعائرِ لها..!
لكنَّها أشارتْ لي بيدَيْهَا الملكيَّةِ : صَهٍ صَهٍ لا تُكْثِري من الحديثِ.. ؟؟ :ابحثي عن معجزتِكِ ، وأمسكي بتلافيفِهَا ، ثمَّ اطلُبي الرِّضَا من (حتحور)... ولذتُ بـ(حتحورَ) ..!
وجَّهْتُ وجهيَ صَوْبَهَا ، رحتُ أُطِيلُ النَّظَرَ للرِّدَاءِ الأَحْمَرِ وغطاءِ الرَّأْسِ مِنْ قُرْصِ الشَّمْسِ النَّازِفَةِ فبانَ لي مرادُهَا ،أمَّا هي فقد عَجَنَتْ لي معجزتي من طحينِ المألوفِ وخميرةِ الذِّكْرَى ... مِن المُكْتَمِلِ بالغيابِ ومِن الحاضرِ- كوهمٍ مُخَاتِلٍ ومتثائب..
. وحلَّتْ (حتحور)في جسدي فباعدَتْ ما بيني وبيني .. وما بين ألمي ومُنتهى ألمي ، باعدَتْ ما بين ذراعَيَّ ، ما بين ساقَيَّ ، ما بين عينَيَّ ، وما بين قلبي ثم كوَّنتْني شجرةً ترسل الفَيْءَ والظلالَ فكنتُ أستحلبُ الماءَ من ثديي وأعطيهِ للظامئين الجالسينَ عند أعطافِها . ومرَّتْ بُرْهَةٌ أفقتُ بعدها على صوتِ (إيزيس) المسكينِ الجائعِ يصرخُ باكياً ،منادياً ،مهدِّداً ،ممسكاً باللَّوح المُمَزَّقِ عند أطرافِه ومستجدياً العابرينَ.. !!
عندئذٍ انكشفَ المكتوبُ ، بانتْ لي لُجُّتي ، فَرُحْتُ أعدو هَلِعَةً فَزِعَةً وسَط الجموعِ المتهافتةِ ، أشقُّ لنفسي طريقاً للعودةِ وسَطَ الوجوهِ الجائعةِ الكالحةِ ، ومَواقِدُ النَّارِ المُغْرِقَة وأمُدُّ يَدِيَ - وسَط الزحامِ وعند واجهاتِ المقابرِ ووسَط النِّسوةِ اللَّاتي يتصايَحْنَ بلوعةٍ - ألتقطُ (حورس) اليتيمَ أُخْرِجُ لَهُ ثديي لأُسْقِيَه ، أفتحُ له

رُوحي لتُؤْوِيَهُ ، وأُهَدْهِدَهُ حتَّى يَكْبَرَ وأصطَبِرُ حتَّى يعودَ ليبحثَ لي عن كلّ ما فقدتُه (وشاحيَ ،الكوفيَّةَ ،العباءةَ ،النظَّارةَ) ربَّمَا يسترُ بها ما ظَهَرَ لهم من عُرْيِي، ويأتيني ببعض ماءٍ أَرْوِي بِه معجزةَ الظَّمَأ المُمْتَدَّةَ بحتميَّةِ أفقٍ بلا نهايةٍ فلربَّما أتمكَّنُ أنْ أعودَ من حيث كنتُ ...!